المعاصي تمرض القلوب

قال الإمام ابن القيم [١] - رحمه الله - :

«**ومن عقوبة المعصية**: أنها تصرف القلب عن صحته واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه، فلا يزال مريضاً معلولاً لا ينتفع بالأغذية الّتي بها حياته وصلاحه، فإنّ تأثير الذنوب أمراض القلوب وداؤها، ولا دواء لها إلاّ تركها، وقد أجمع السّائرون إلىٰ الله أن القلوب لا تعطي مناها حتّىٰ تصل إلىٰ مولاها، ولا تصل إلىٰ مولاها حتّىٰ تكون صحيحة سليمة، ولا تكون صحيحة سليمة حتّىٰ ينقلب داؤها فيصير نفس دوائها، ولا يصح لها ذلك إلاّ بمخالفة هواها، فهواها مرضها، وشفاها مخالفته، فإن استحكم المرض قتل أوكاد.

وكما أنّ من نهىٰ نفسه عن الهوىٰ كانت الجنة مأواه وكذا يكون قلبه في هذه الدار في جنة عاجلة، لا يشبه

(١) انظر: «الداء والدواء» (ص: ١٠٠ - ١٠١).

نعيم أهلها نعيمًا البتة، بل التّفاوت الّذي بين النعيمين، كالتّفاوت الّذي بين نعيم الدُّنيا والآخرة، وهذا أمر لا يصدق به إلاّ من باشر قلبه هذا وهذا.

ولا تحسب أن قوله – تعالىٰ –: ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤)﴾ [الانفطار: ١٣-١٤].

مقصور علىٰ نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم الثلاثة هم كذلك – أعني دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار – فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلاّ نعيم القلب؟ وهل العذاب إلاّ عذاب القلب،وأيُّ عذاب أشد من الخوف والهم والحزن، وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنّه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذّب به ثلاث مرات في هذه الدار، فهو يعذّب به قبل حصوله حتّىٰ يحصل، فإذا حصل عُذّب به حال حصوله بالخوف في سلبه

وفواته، والتنغيص والتنكير عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الّذي لا يرجو عوده، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة الّتي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتّىٰ يردها الله أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلىٰ نوع هو أدهى وأمرّ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طربًا وفرحًا وأنسًا بربه، واشتياقًا إليه، وارتياحًا بحبه، وطمأنينة بذكره؟ حتّىٰ يقول بعضهم في حال نزعه، واطرباه.

ويقول الآخر: إن كان أهل الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب.

ويقول الآخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها

وما ذاقوا لذة العيش فيها، وما ذاقوا أطيب ما فيها.

ويقول الآخر: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

ويقول الآخر: إنّ في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

فيا من باع حظّه الغالي بأبخس الثمن، وغبن كل الغبن في هذا العقد، وهو يرى أنّه قد غبن، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقوّمين.

فيا عجبًا من بضاعة معك الله مشتريها، وثمنها جنة المأوىٰ، والسفير الذي جرىٰ علىٰ يديه عقد التبايع وضمن الثمن عن المشتري هو الرسول - ﷺ -، وقد بعتها بغاية الهوان، كما قال القائل:

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه
فمن ذا له من بعد ذلك يكرم

﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحج: ١٨].

تأثير المعصية على القلب

قال الإمام ابن القيم [١] - رحمه ا& تعالى -:

«الذنوب إذا تكاثرت طُبع علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قَال بعض السلف في قوله - تعالىٰ -: ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ [المطففين: ١٤].

قال: هو الذنب بعد الذنب. وقال الحسن: هو الذنب علىٰ الذنب، حتَّىٰ يعمىٰ القلب. وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أنّ القلب يصدأ من المعصية، فإذا زاد غلب الصدأ حتَّىٰ يصير رانًا، ثُمَّ يغلب حتَّىٰ يصير طبعًا وقفلاً وختمًا، فيصير القلب في غشوة وغلاف، فإذا

---

(١) انظر: «الداء والدواء» (ص٨٠).

حصل له ذلك بعد الهدىٰ والبصيرة انتكس ، فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاّه عدوه ويسوقه حيث أراد » .

فهذه هي آثار الذنوب والمعاصي والاستمرار عليها، وعدم الاستغفار والتوبة إلىٰ الله – عزّ وجلّ – تُردي بالقلب حتَّىٰ يُغلَّف عن الحق وأهله، فلا يعرف المعروف بعد ذلك، ولا يُنكر المنكر ، كما ذكر النَّبيُّ – ﷺ – : «إنّ المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها ، وإن زاد زادت ، حتَّىٰ يغلف قلبه ، فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ »(١) .

---

(١) تقدّم تخريجه .

من عقوبة المعاصي

«الختم على القلب - خسف القلب - مسخ القلب - نكس القلب - حجب القلب عن الرب - المعيشة الضنك»

قال الإمام الحافظ ابن القيّم(١) **- رحمه الله -:**

فاستحضر بعض العقوبات التي رتّبها الله - سبحانه وتعالىٰ - علىٰ الذنوب وجواز وصول بعضها إليك، واجعل ذلك داعيًا للنفس إلىٰ هجرانها، وأنا أسوق لك منها طرفًا يكفي العاقل مع التصديق ببعضه.

[١] الختم على القلب:

فمنها: الختم علىٰ القلوب والأسماع، والغشاوة علىٰ الأبصار، والإقفال علىٰ القلوب، وجعل الأكنة عليها، والرين عليها والطبع، وتقليب الأفئدة والأبصار،

---

(١) **انظر**: «الداء والدواء» (ص١٤٧ - ١٥٠).

والحيلولة بين المرء وقلبه، وإغفال القلب عن ذكر الرب، وإنساء الإنسان نفسه، وترك إرادة الله تطهير القلب، وجعل الصدر ضيقًا حرجًا كأنّما يصّعّد في السّماء، وصرف القلوب عن الحق، وزيادتها مرضًا علىٰ مرضها، وإركاسها وإنكاسها، بحيث تبقىٰ منكوسة (١) .

* ومنها : التثبيط عن الطاعة، والإقعاد عنها .

* ومنها : جعل القلب أصمّ لا يسمع، أبكم لا ينطق به، أعمىٰ لا يراه، فتصير النسبة بين القلب وبين الحق الّذي لا ينفعه غيره، كالنسبة بين أذن الأصم والأصوات، وعين الأعمىٰ والألوان، ولسان الأخرس والكلام، وبهذا يعلم أن العمىٰ والصمم والبكم للقلب بالذات والحقيقة، وللجوار بالعرض والتبعية .

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) ﴾ [الحج : ٤٦] .

---

(١) ذكر ابن القيّم حديثًا ضعيفًا ، وقد حذفته ولم أذكره .

obeikandl.com

وليس المراد نفي العمىٰ الحسّي عن البصر، كيف وقد قال - تعالىٰ -: ﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ ﴾ [النور: ٦١]، وقال: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ (١) أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ (٢) ﴾ [عبس: ١، ٢]، وإنّما المراد العمىٰ التّام في الحقيقة عمىٰ القلب، حتّىٰ إن عمىٰ البصر بالنسبة إليه كالأعمىٰ، حتّىٰ إنّه يصح نفيه بالنسبة إلىٰ كماله وقوّته، كما قال النّبيُّ - ﷺ -: «**ليس الشّديد بالصرعة، ولكنّه الّذي يملك نفسه عند الغضب**»(١).

وقوله - ﷺ - «**ليس المسكين بالطّوّاف الّذي ترده اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين الّذي لا يسأل النّاس، ولا يُفطن له فيُتصدّق عليه**»(٢).

والمقصود: أنّ من عقوبة المعاصي جعل القلب أعمىٰ أصم أبكم.

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٣)، ومسلم (٢٦٠٩)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٢٦٥)، ومسلم (١٠٣٩)، من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

[٢] خسف القلب:

❁ **ومنها**: الخسف بالقلب كما يخسف بالمكان وما فيه، فيخسف به إلىٰ أسفل السّافلين، وصاحبه لا يشعر، وعلامة الخسف به أنّه لا يزال جوّالاً حول السفليّات والقاذورات والرذائل، كما أنّ القلب الذي رفعه الله وقربه إليه لا يزال جوّالاً حول العرش.

❁ **ومنها**: البعد عن البر والخير ومعالي الأعمال والأقوال والأخلاق.

إنّ هذه القلوب جوّالة، فمنها ما يجول حول العرش، ومنها ما يجول حول الحُش.

[٣] مسخ القلوب:

❁ **ومنها**: مسخ القلب، فيُمسخ كما تُمسخ الصورة، فيصير القلب علىٰ قلب الحيوان الّذي شابهه في أخلاقه وأعماله وطبيعته، فمن القلوب ما يُمسخ

علىٰ قلب خنزير لشدة شبه صاحبه به، ومنها ما يُمسخ علىٰ خلق قلب كلب أو حمار أو حيّة أو عقرب وغير ذلك، وهذا تأويل سفيان بن عيينة في قوله - تعالىٰ -: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨].

قال: منهم من يكون علىٰ أخلاق السّباع العاديّة، ومنهم من يكون علىٰ أخلاق الكلاب وأخلاق الخنازير وأخلاق الحمير، ومنهم من يتطوّس في ثيابه كما يتطوّس الطاووس في ريشه، ومنهم من يكون بليداً كالحمار، ومنهم من يؤثر علىٰ نفسه كالدّيك، ومنهم من يألف ويُؤلف كالحمام، ومنهم الحقود كالجمل، ومنهم من هو خيرٌ كله كالغنم، ومنهم أشباه الثعالب الّتي تروغ كروغانها، وقد شبّه الله ـ تعالىٰ ـ أهل الجحيم والغي بالحمر تارة، وبالكلب تارة، وبالأنعام تارة.

وتقوىٰ هذه المشابهة باطنًا حتَّىٰ تظهر في الصورة الظاهرة ظهوراً خفيًا، يراه المتفرّسون، وتظهر الأعمال ظهوراً يراه كل أحد ولا يزال يقوىٰ حتَّىٰ تستشنع الصورة، فتنقلب له الصورة - بإذن الله -، وهو المسخ التام، فيقلب الله - سُبحانه وتعالىٰ - الصورة الظاهرة علىٰ صورة ذلك الحيوان، كما فعل باليهود وأشباههم، يفعل بقوم من هذه الأمة يمسخهم قردة وخنازير.

فسبحان الله ! كم من قلب منكوس وصاحبه لا يشعر؟ ، وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ، وكل هذه عقوبة وإهانات، ويظن الجاهل أنّها كرامة.

❁ ومنها: مكر الله بالماكر، ومخادعته للمخادع، واستهزاؤه بالمستهزئ، وإزاغته للقلب الزائغ عن الحق.

[٤] نكس القلب:

ومنها: نكس القلب حتّىٰ يرىٰ الباطل حقًا، والحق باطلاً، والمعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، ويفسد ويرىٰ أنّه يصلح، ويصد عن سبيل الله وهو يرىٰ أنّه يدعو إليها، ويشتري الضّلالة بالهدىٰ، وهو يرىٰ أنّه علىٰ الهدىٰ، ويتّبع هواه وهو يزعم أنّه مطيع لمولاه؟ وكل هذا من عقوبات الذنوب الجارية علىٰ القلب.

[٥] حجب القلب عن الرب:

ومنه: حجاب القلب عن الرب في الدُّنيا، والحجاب الأكبر يوم القيامة، كما قال - تعالىٰ -: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥)﴾ [المطفّفين: ١٤، ١٥].

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم، فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها وما

يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتُقَرَّ به عينًا ، وتطيب به نفسًا، بل كانت الذنوب حجابًا بينهم وبين ربهم وخالقهم.

[٦] المعيشة الضنك:

❁ **ومنها**: المعيشة الضنك في الدُّنيا وفي البرزخ والعذاب في الآخرة، قال - تعالىٰ -: ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤)** ﴾ [طه: ١٢٤].

وفسّرت المعيشة الضّنك بعذاب القبر، ولا ريب أنه من المعيشة الضنك، والآية تتناول ما هو أعم منه، وإن كانت نكرة في سياق الإثبات، فإنّ عمومها من حيث المعنىٰ، فإنه - سبحانه - رتّب المعيشة الضّنك عن الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة

بحسب إعراضه،وإن تنعّم في الدُّنيا بأصناف النعم، ففي قلبه من الوحشة والذل والحسرات الّتي تقطع القلوب والأماني الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه، وإنّما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدُّنيا والرّياسة، وإن لم ينضم إلىٰ ذلك سكر الخمر، فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر، فإنّه يفيق صاحبه ويصحو، وسكر الهوىٰ وحب الدُّنيا لا يصحو صاحبه إلاّ إذا كان صاحبه في عسكر الأموات، فالمعيشة الضّنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الّذي أنزله علىٰ رسوله - ﷺ - في دُنياه وفي البرزخ ويوم المعاده، ولا تقر العين، ولا يهدأ القلب، ولا تطمئن النفس إلاّ بإلاهها ومعبودها الّذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرَّتْ عينه بالله قرَّتْ به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله تقطّعت نفسه علىٰ الدُّنيا حسرات، والله - تعالىٰ - إنّما جعل الحياة الطّيّبة لمن آمن به، وعمل صالحًا، كما قال - تعالىٰ -:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النّحل: ٩٧]، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدُّنيا بالحياة الطَّيِّبة والحسنَىٰ يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين، فهم أحياء في الدّارين.

ونظير هذا قوله – تعالىٰ –: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾ [النّحل: ٣٠]، ونظيرها قوله – تعالىٰ –: ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) ﴾ [هود: ٣].

ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدُّنيا والآخرة، وحصلوا علىٰ الحياة الطَّيِّبة في الدَّارين، فإن طيب النفس وسرور القلب،وفرحته ولذّته ،وابتهاجه وطمأنينته ،وانشراحه ونوره ، وسعته ،وعافيته من ترك الشهوات المحرمة،

والشبهات الباطلة، وهو النّعيم علىٰ الحقيقة، ولا نسبة لنعيم البدن إليه، وقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذّة: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسّيوف.

وقال آخر: إنّه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنّهم لفي عيش طيب.

وقال آخر: إنّ في الدُّنيا جنّة هي في الدُّنيا كالجنة في الآخرة، فمن دخلها دخل تلك الجنة، ومن لم يدخلها لم يدخل جنّة الآخرة، وقد أشار النّبيُّ - ﷺ - إلىٰ هذه الجنة بقوله: «**إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا**» قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «**حلق الذكر**»[1]، وقال: «**ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة**»[2].

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٠)، والترمذيّ (٣٥١٠)، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاريُّ (١١٣٧)، ومسلم (١٣٩٠).